

"مَتَعَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا"

- د. أرنك زيب الأعظمي¹

قال المعلم عبد الحميد الفراهي متحدثاً عن هذه الكلمة:

"المتاع: مصدر، ثم اسم لما يتمتع به. ومنه للسلعة. والمتاع يتضمن قلة المدة. فربما يؤكّد بالتصريح بها، وربما يكتفى بما يفهم منه، كما قال تعالى: "مَتَعَ فِي الدُّنْيَا ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ" [سورة يونس: 70] أي تمتع لمدة قليلة. والشواهد على ما ذكرنا كثيرة".²

وأودّ أن أشرح هذا القول فيما يلي:

فالمتاع يعني ما هو قليل وحقير، قال تعالى: "رُبَّيْنِ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالْأَنْعَامِ وَالْخَرْثِ ذَلِكَ مَتَعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الْمَتَابِ ﴿١٦﴾". (سورة آل عمران)

وقال: "وَمَا أُوتِيتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَمَتَّعُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزَيَّنْتُهَا وَمَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَى أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٢٦﴾ أَفَمَنْ وَعَدْنَاهُ وَعْدًا حَسَنًا فَهُوَ لَاقِيهِ كَمَنْ مَتَّعْنَاهُ مَتَّعْنَاهُ مَتَّعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ هُوَ يَوْمَ الْقِيَمَةِ مِنَ الْمُحْضَرِينَ ﴿٣١﴾ وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَائِيَ الَّذِينَ كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ ﴿٣٢﴾". (سورة القصص)

وربما صرح بذكر المدة، فقال تعالى: "فَأَزَلَّهُمَا الشَّيْطَانُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ وَقُلْنَا اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَّعٌ إِلَى حِينٍ ﴿٣٦﴾". (سورة البقرة)

وقال: "وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنْكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا وَصِيَّةً لِأَزْوَاجِهِمْ مَتَّعًا إِلَى الْخَوْلِ غَيْرِ إِخْرَاجٍ فَإِنْ خَرَجْنَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِي مَا فَعَلْنَ فِي أَنْفُسِهِنَّ مِنْ مَعْرُوفٍ وَاللَّهُ عَزِيزٌ

¹ مدير تحرير المجلة وأستاذ مساعد، قسم اللغة العربية وآدابها، الجامعة المالية الإسلامية، نيودلهي

² مفردات القرآن، ص 310

حَكِيمٌ ﴿٢٦﴾". (سورة البقرة)

وكذا صرّح بقلتها، فقال تعالى: "لَا يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي الْبِلَادِ ﴿٣٦﴾ مَتَّعٌ قَلِيلٌ ثُمَّ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمِهَادُ ﴿٣٧﴾". (سورة آل عمران)

وقال: "أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ كُفُّوا أَيْدِيَكُمْ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ إِذَا فَرِيقٌ مِنْهُمْ يَخْشَوْنَ النَّاسَ كَخَشْيَةِ اللَّهِ أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً وَقَالُوا رَبَّنَا لِمَ كُتِبَ عَلَيْنَا الْقِتَالُ لَوْلَا أَخَّرْتَنَا إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ قُلْ مَتَّعُ الدُّنْيَا قَلِيلٌ وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ لِمَنِ اتَّقَى وَلَا تُظْلَمُونَ فَتِيلًا ﴿٣٨﴾". (سورة النساء)

وقال أيضاً: "يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمْ أَنْفِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَتَأْخُذْتُمْ مِنَ الْأَرْضِ أَرْضَيْتُمْ بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا مِنَ الْآخِرَةِ فَمَا مَتَّعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ ﴿٣٩﴾". (سورة التوبة)

وجاء في سورة هود: "الرَّ كُتِبَ أَحْكَمَتْ ءَايَتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ ﴿١﴾ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ إِنِّي لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ ﴿٢﴾ وَإِنْ أَسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُمَتِّعْكُمْ مَتَّعًا حَسَنًا إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى وَيُؤْتِ كُلَّ ذِي فَضْلٍ فَضْلَهُ وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ كَبِيرٍ ﴿٣﴾ إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٤﴾".

وكذا أشير إلى قلتها، فقال تعالى: "فَلَمَّا أَنْجَلَهُمْ إِذَا هُمْ يَبْعُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ يَتَأْتِيهَا النَّاسُ إِنَّمَا بِغَيْرِكُمْ عَلَى أَنْفُسِكُمْ مَتَّعَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُكُمْ فَتُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٠﴾". (سورة يونس)

وقال: "قُلْ إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ ﴿٦٦﴾ مَتَّعٌ فِي الدُّنْيَا ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ نَذِقُهُمُ الْعَذَابَ الشَّدِيدَ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ ﴿٦٧﴾". (سورة يونس)

وقال أيضاً: "يَقُومُ إِنَّمَا هَذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا مَتَّعٌ وَإِنَّ الْآخِرَةَ هِيَ دَارُ الْقَرَارِ ﴿٣١﴾". (سورة غافر)

وكذا صرّح بغرورها، فقال تعالى: "كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ وَإِنَّمَا تُوَفَّقُونَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ ۖ فَمَنْ زُحِرَ عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ ﴿١٨٥﴾ * لَتُبْلَوُنَّ فِي أَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا أَذًى كَثِيرًا وَإِن تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ ﴿١٨٦﴾". (سورة آل عمران)

وقال أيضاً: "أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُمْ مَعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضًا سُخْرِيًّا وَرَحْمَتُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴿٢٢﴾ وَلَوْلَا أَن يَكُونَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً لَّجَعَلْنَا لِمَن يَكْفُرُ بِالرَّحْمَنِ لِيُوبِتَهُمْ سُقُفًا مِّن فِضَّةٍ وَمَعَارِجَ عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ ﴿٢٣﴾ وَلِيُوبِتَهُمْ أَبْنَاءَ ابْنَتَيْهِمْ وَسُرَرًا عَلَيْهَا يَتَكَبَّرُونَ ﴿٢٤﴾ وَزُخْرَفًا وَإِنَّ كُلَّ ذَلِكَ لَمَّا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةُ عِنْدَ رَبِّكَ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٢٥﴾". (سورة الزخرف)

وهكذا أشير إلى غرورها وقلتها، فقال تعالى: "اللَّهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ وَيَقْدِرُ ۚ وَفَرِحُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا مَتَاعٌ ﴿٦١﴾". (سورة الرعد)

فتنكشف في الآخرة قلة هذه الدنيا وغرورها.

وقال أيضاً: "اعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهُوَ زِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ الْكُفَّارَ نَبَاتُهُ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطَمًا وَفِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٌ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ ﴿٥٠﴾ سَابِقُوا إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أُعِدَّتْ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ ۚ ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ ﴿٦١﴾". (سورة الحديد)

وكثر ورود هذه الكلمة في كلام العرب وللمدلولات المذكورة أعلاه. فالمتاع مصدرًا كما قال المسبّب بن علس، شاعر جاهلي كان الأعشى راويته:

أرحلت من سلى بغير متاع قبل العطاس ورعتها بوداع

من غير مقلية وإنّ حبالها ليست بأرمام ولا أقطاع¹
والمتاع: ما يتمتع به كما قال الفرزدق:

فلا أسطيعُ ردَّ الشيب عني ولا أرجو مع الكبر الشبابا
فليت الشيبَ يومَ غدا علينا إلى يوم القيامة كان غابا
فكان أحبَّ منتظر إلينا وأبغضَ غائب يُرجى إيابا
فلم أرَ كالشباب متاعَ دنيا، ولم أرَ مثلَ كسوته ثيابا²
فتنكير المتاع هنا للتعظيم والفخامة.

وقال مشعث العامري:

تمتع يا مشعثُ إنّ شيئاً سبقتَ به الوفاة هو المتاع³
وأشدّ اللحائي:

كلُّ شيءٍ حتى أخيك متاعٌ وبقدّرٍ تفرّق واجتماع⁴
والمتاع هو البضاعة كما قال امرؤ القيس:

ولوا متاعهم وقد سئلوا بذل المتاع فضنّ بالبذل⁵
وقال تأبط شراً:

عاذلتي إنّ بعض اللوم معنفة وهل متاعٌ وإن أبقيته باق
إني زعيمٌ لئن لم تتركوا عذلي أن يسئل الحيّ عني أهل آفاق

¹ ديوان المفضليات، ص 60-61

² ديوانه، ص 75-76

³ ديوان الأصمعيات، ص 148

⁴ لسان العرب: قدر

⁵ ديوانه، ص 132

سدّدْ خِلالَكَ مِنْ مَالٍ تَجَمُّعُهُ فَلَا يَخْبِرُهُمْ عَنْ ثَابِتٍ لَاقٍ
وَلَمْ يَكْ يَنْهَرْ الْأَيْتَامَ قَطَّ حَتَّى تَلَاقِيَ الَّذِي كُلُّ أَمْرٍ لَاقٍ¹
وَقَالَ طَفِيلُ الْغَنَوِيِّ:

لَقَدْ أَرْدَى الْفَوَارِسُ يَوْمَ نَجْدٍ غَلَامًا غَيْرَ مَتَاعٍ الْمَتَاعِ
وَلَا فَرِحًا بِخَيْرٍ إِنَّ أَتَاهُ وَلَا جَزَعًا مِنْ الْحَدَثَانِ لَاعٍ
وَلَا وَقَافَةً وَالْخَيْلُ تَرْدِي وَلَا خَالٍ كَأَنْبُوبِ الْبِرَاعِ²
وَقَالَ قَطْرِي بْنُ الْفَجَاءَةِ:

وَمَا لِلْمَرْءِ خَيْرٌ فِي حَيَاةٍ إِذَا مَا عُدَّ مِنْ سَقَطِ الْمَتَاعِ³
وَقَالَ جَرِيرٌ:

فَرَّقَ لَجْدَكَ أَكْبَارَهُ وَأَصْلَحَ مَتَاعَكَ لَا تَفْسِدُ⁴
وَقَالَ هُدْبَةُ بْنُ الْحَشْرَمِ الْعَذْرِيِّ:

لَقَدْ كَانَ جَوَادًا طَوَّلَ عَمْرٍ نَصِيبُ الْفَقْرِ مِنْ مَالِهِ مَا تَمْتَعَا⁵
وَالْمَتَاعُ: مَا يَكُونُ قَلِيلًا كَمَا قَالَ الْأَفْوَهِ الْأَوْدِي:

إِنَّمَا نِعْمَةٌ قَوْمٍ مُتَعَةٌ وَحَيَاةُ الْمَرْءِ ثَوْبٌ مُسْتَعَارُ⁶
وَقَالَ لَبِيدُ بْنُ رَيْبَعَةَ الْعَامِرِيِّ:

هَلْ النَّفْسُ إِلَّا مُتَعَةٌ مُسْتَعَارَةٌ تُعَارُ فِتْنَاتِي رَبِّهَا فَرَطُ أَشْهَرِ⁷

¹ ديوان المفضليات، ص 30

² ديوانه، ص 145

³ شرح ديوان الحماسة، 25/1، ويروى لقطري بن الفجاءة المازني، شعر الخوارج، ص 109

⁴ ديوانه، ص 103

⁵ شعره، ص 113

⁶ ديوانه، ص 73

⁷ ديوانه، ص 72

كما يوصف بالقلة أيضاً فقال أعشى تميم:

فنعم ابن عم المرء آتية مُغرماً قليل المتاع والبضاعة مُعدماً¹
وقال متمم بن نويرة:

ولقد حرصتُ على قليل متاعها يوم الرحيل فدمعها المستنفع²
كما يكون زائلاً في فترة وجيزة فقال بشر بن أبي خازم الأسدي:

وكل غَضارة لك من حبيب لها بك أو لهوت بها متاع
قليلاً، والشبابُ سحابٌ ريج إذا ولى فليس له ارتجاع³
وقال مسكين الدارمي:

وحصن بصحراء الثوية يئته ألا إنما الدنيا متاع يمتع⁴
والمتاع أيضاً هو الوداع كما قال المثقب العبدى:

ألا إنَّ هنذا أمس رثَّ جديدها وضنتُ، وما كان المتاعُ يؤودها⁵
وأما كون المتاع غروراً فعنى زائد جاء به القرآن الكريم.

¹ الصبح المنير في شعر أبي بصير، ص 276

² ديوان المفضليات، ص 49

³ ديوانه، ص 88

⁴ ديوانه، ص 49

⁵ ديوانه شعره، ص 83، ويؤيده هنا ما جاء في سورة البقرة:

"اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ لَا تَأْخُذُهُ سِنَّةٌ وَلَا نَوْمٌ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِنْ عِلْمِهِ إِلَّا بِمَا شَاءَ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَا يَئُودُهُ حِفْظُهُمَا وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ ﴿٢٥٥﴾".

المصادر والمراجع

1. القرآن الكريم
2. ديوان الأصمعيات، تحقيق: أحمد محمد شاكر وعبد السلام هارون، دار المعارف بمصر، ط3
3. ديوان الأفوه الأودي، شرح وتحقيق: د. محمد التونجي، دار صادر، بيروت، ط1، 1998م
4. ديوان الفرزدق، شرح الأستاذ علي فاعور، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، 1987م
5. ديوان المفضليات للمفضل الضبي، تحقيق وشرح: أحمد محمد شاكر وعبد السلام محمد هارون، دار المعارف، ط6
6. ديوان امرئ القيس، ضبطه وصحّحه: الأستاذ مصطفى عبد الشافي، دار الكتب العلمية، بيروت، 2004م
7. ديوان بشر بن أبي خازم الأسدي، تقديم وشرح: مجيد طراد، دار الكتاب العربي، بيروت، ط1، 1994م
8. ديوان جرير، دار بيروت للطباعة والنشر، بيروت، 1986م
9. ديوان شعر المثقب العبدى، تحقيق وتعليق: حسن كامل الصيرفي، جامعة الدول العربية، معهد المخطوطات العربية، 1971م
10. ديوان طفيل الغنوي، تحقيق: حسن فلاح أوغلي، دار صادر، بيروت، ط1، 1997م
11. ديوان لبيد بن ربيعة العامري، دار صادر، بيروت، د.ت.
12. ديوان مسكين الدارمي، جمع وتحقيق: عبد الله الجبوري و خليل إبراهيم العقبة، مطبعة دار البصرى، بغداد، ط:1، 1970م
13. شرح ديوان الحماسة للعلامة التبريزي، دار القلم، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى
14. شعر الخوارج، جمع وتحقيق: د. إحسان عباس، دار الثقافة، بيروت، لبنان، 1974م

15. شعر هدية بن الخشرم العذري، صنعة الدكتور يحيى الجبوري، دار القلم للنشر والتوزيع، الكويت، ط2، 1986م
16. الصبح المنير في شعر أبي بصير، مطبعة آدلف هلزوسنين، بيانه، 1927م
17. لسان العرب لابن منظور الإفريقي، دار صادر، بيروت، د.ت.
18. مفردات القرآن للإمام عبد الحميد الفراهي، تحقيق وشرح: د. محمد أجمل أيوب الإصلاحي، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط1، 2002م